سبيل الكمال

لفضيلة العارف بالله تعالى

سيدى الشيخ / محمد الحافظ التجانى المصرى

غرة رمضان ١٣٤٣ هـ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يا بارئ الأرض والسماوات ، ويا عالم الجليات والخفيات ، سبحانك سبحانك ، أرسلت سيد الخلق وخاتم الرسل بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأيدته بالحجة الواضحة والبرهان الساطع والآيات البينات ، وأنزلت عليه القرآن العظيم مصدقاً لما بين يديه ، فأخرج به الناس من دياجير الظلمة[1] العمياء إلى النور الحق المبين ، وجعلت يا ربنا أهل القرآن مهبط الأسرار وينابيع الإفاضات ، فهم من الذات المحمدية يستقون ومن عين الوحدة يغترفون ، قد أمنتهم على أسرارك واصطفيتهم لأنوارك ، فما فى الكون من التحقيق إلا رشحات منهم أو قطرات من وابل أسرارهم ، فهم القادة فى كل عصر وشموس الحق مدى الدهر ، فما المستقيم إلا طريقهم ، وما الحق إلا قولهم ، فيه ترتاح النفوس وبه تطمئن القلوب ، تدكدكت الأغيار ورفع الستار فإذا هم فى الحق عن الحق للحق بالحق ، فرضى الله عنهم ورضَّاهم وجعل الجنة متقلبهم ومثواهم .

أما بعد ،،،

فإن سيدنا ومولانا ، أستاذنا وملاذنا صاحب الأنوار القدسية ومعدن الأسرار العرفانية ، أبا الكمال السيد محمد الحافظ التجانى ـ أمدنا الله بمدده وسقانا من بحره ونفعنا به فى الدنيا والآخرة ـ كتب إلى أحد محبيه من طلبة العلم كتابين جاء فيهما من غزير العلم ما يعجز اللسان عن وصفه ، على حسب عادته رضى الله تعالى عنه فى الأجوبة ، ذكر فى أحدهما الكلام على أنه لا يمكن إدراك أقسام الحقائق إلا بالدليل القطعى ، وأن العلم المادى غير كاف فى معرفة الحق سبحانه وتعالى لأنه ظنى ، والاستدلال على الخالق لا تكفى فيه الدلائل الظنية .

وذكر فيهما الجواب على سؤاله لِمَ لمْ ينزل القرآن بلغة يفهمها العالم كله ؟ ولِمَ لمْ يلبث النبى صلى الله عليه وسلم زمناً يجول فيه فى مشارق الأرض ومغاربها لتعميم الرسالة ؟ والكلام

١ ــ ظلام الظلمة .

على الرسالة واختصاصها بالعرب دون غيرهم من الأمم ، وما به الكمال العلمى للإنسان والكمال العملى ، وما يتعلق بذلك من مختلف المواضيع ، وفيها تشجيع له على ما تشكى من الشدائد التى يعانيها فى غربته .

ولما ألفينا حاجة أهل العصر إلى مثل هذه الفوائد خصوصاً شباب الطلبة الأذكياء ــ إذ هذه الأسئلة تجول بخاطر بعض نجباء طلبة العلم المادى ـ أحببنا أن ننشرها للعالم كله ليقتبسوا منها الهدى وليرجعوا عن طريق الردى تلك ـ إساءة الظن بالخالق جل وعلا ــ وأسميناها **سبيل الكمال** ، واستأذناه رضى الله تعالى عنه فى طبعها ، فجاء الإذن الكريم فى غرة رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية ، وإنا نرجو إن شاء الله أن يعم نفعها الخاص والعام ببركة الشيخ رضى الله تعالى عنه ، وصلى الله على سيدنا محمد الفاتح الخاتم وعلى آله وصحبه وسلم .

حافظ توفيق التجانى[٢]

(قرية الشوبك ـ مركز ديرب نجم ـ محافظة الشرقية)

٢ ــ حافظ توفيق أحمد على ، من تلاميذ سيدى الشيخ محمد الحافظ التجانى ، مقدم الطريقة التجانية بشوبك بالشرقية ، وهو زوج شقيقة الدكتور على إبراهيم على الموجهة إليه هذه الرسائل ، توفى عام ١٩٦٧ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلق الله .

عزيزى على أفندى[٣] ،،،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، سلاماً أبدياً سرمدياً ، يتزايد وينمو ويتضاعف أبد الآبدين ودهر الداهرين .

وصلنى خطابك ، فألفيت فيه روحاً حنت إليها جوارحى وروحى ، وخفق قلبى خفوق الحب الكلى والاشتياق المحض ، ومما أعجبنى فيه ـ وكله جميل ـ أنه كتب براءً من التكلف معبراً عن صرف المعانى ، فلله أنت يا على ، وكان الله لك أينما كنت وكيفما كنت .

أبلغك ما بقلبى من شوق إليك لو سألت قلبك عنه لأجابك ، وإنى أترك تقدير ذلك لروحك التى أحببتها ، وسأستمر موالياً لمحبتها ، إذ أننى عرفت فيها الهمة وحب الحق ونصرة الفضيلة .

إننى أحب أن أقف على جميع أحوالك ، وأصرح لك أننى لا أتمالك نفسى من الاهتمام بك اهتماماً خاصاً لا أعرف له مصدراً إلا مصدر حياتى ، ووصيتى لك قوله تعالى : (**واستعينوا بالصبر والصلاة**)[٤] ، وقوله تعالى : (**واجعلنا للمتقين إماماً**)[٥] ، فإننى أربأ بك أن تكون فاضلاً فحسب أو تقياً فقط ، بل أرجو أن تكون ـ يا من أحبه وأحب له الدرجة العليا ـ إماماً فى الفضل للفضلاء ، وإماماً للمتقين فى التقى .

وإن أجمل فضيلة أن تكون فاضلاً بين غير ذوى الفضل ، وأرجو الله أن يجعلك سبباً فى إنقاذ من انتهج غير سبيل الحق فى ألمانيا من غمرات غرورهم ، وجهلهم بأهم شىء فى الحياة ، فإن الفاضل الذى يؤثر فضله ، ولا يمكن أن يتأثر بباطلٍ ما ، لهو الذى سما إلى ذروة الحق المبين

---

٣ ــ الدكتور على إبراهيم على ، كان يُعد رسالة الدكتوراة فى الكيمياء فى ألمانيا ، وعاد إلى مصر عام ١٩٢٤ م ، وأصبح فيما بعد مديراً عاماً لمصلحة الطب الشرعى بمصر ، وهو زوج شقيقة الأستاذ حافظ توفيق التجانى .

٤ ــ سورة البقرة ، الآية ٤٥ .

٥ ــ سورة الفرقان ، الآية ٧٤ .

والفضيلة التالدة والمجد الخالد .

تصور حياة الإنسان من يوم ولد إلى يوم يموت ، ثم تصور حاله بعد موته ، وسيقف إذ ذاك على الأسرار التى سترت عنه بغطرسته وانصرافه إلى شهوات نفسه ، وعدم استعمال العقل فى الوصول إلى حقيقة الوجود ، وحقيقة روح الإنسان ، ولِمَ وجدت ؟ وما يراد بها ؟ وما طريق تحصيل كمالها ؟ وأداء ما يجب عليها بعد التحقق من ذلك كله ، بما لا ريب فيه ولا يتطرق إليه الشك من الأدلة والحجج ، من غير تعصب ولا محاباة ولا ميل ولا جنف ، فإنه مهما وصل لأية حقيقة من الحقائق العلمية ولم يزل جاهلاً بنفسه ، جاهلاً بسر حياته ، فحسبه بذلك سقوطاً فى هوات النقص ، وهبوطاً فى دركات البعد القصى .

لا أحد من المحققين يقول إن الإله مادة حتى يُتوصل إليه بالطرق المادية ، ولكنه ليس وراء المادة فحسب ، بل هو وراء كل وراء ، فلن تصل إليه إلا باستعمال الآلة التى هى وراء المادة فيك وهى العقل ، فناد أولئك الذين ضلوا الوصول إلى الحقيقة من أول خطوة خطوها فى السير إليها ، فسلكوا سبيلاً غير السبيل الموصلة ، ألا هلموا إلى الدلائل العقلية القطعية التى تبقى ولا تتغير ويؤمَن نقضها فى أى جيل أو زمن ، البديهيات أو ما تأسس على البديهيات ، وأما غيرها فإنكم لا تأمنون فى يوم من الأيام أن ينقض ما وصلتم إليه على يد غيركم ، بل قد يكون نقضه على أيديكم ، ولا خلاف فى أن كل ظنى قد يكون الحق خلافه .

ألا أريحوا ضمائركم ، فإن مَنْ أسس عقائده على ما يحتمل أن يُنقض فإنه أشد الناس احتياجاً إلى من يعلمه كيف يكون عاقلاً ، ولا مانع من أن تبذلوا جهدكم فى العلم المادى لخدمة الإنسانية ، ولكل ما يمكن أن يصلح له ذلك العلم الظنى ، فإن الدين الحق لا ينافى العلم ، بل هو الذى حرر العقول من الجهل ، وفتح باب العلم على مصراعيه .

أيها الأخ المحبوب مد أصبعك وقل لهم : هذا هو الحق ، وهذا هو الطريق الموصل ، وذلك هو الفوز المبين ، واقبض على تلك الأفئدة الفارة من وجه الحق إلى الظلمة الخالدة بذلك القلب

النورانى الجرئ وقل لهم : إنكم استدبرتم مهيع[٦] النجاة فى مفازة البحث وكنتم كمن قيل فيه :

سارت مشرقة وسرت مغرباً   شتان بين مشرق ومغرب

إن الحق فى أعلى عليين مكانة ، وأنتم تجهدون أنفسكم وتبحثون عنه بين الصخور ، فـارفعوا رؤوسكم ، وهلموا إلى العقل ، ثم هذا أنتم وهـذا ربكـم ، إذ ذاك يقـودكم الـدليل القطعـى إلى نعيم اليقين ، فتعلمون بلا ريب أنه سر وجودكم .

إنى أحب أن أكتب لك ، فإن حنينى وولهى إلى رؤيتك لا يُقَدر ، والكتابـة ربمـا خففـت مـن لواعج الأفئدة الملتاعة ، وكم فرجت كرب القلوب العانية ، فسلام الله عليـك ، وسـلام رسـوله صلى الله عليه وسلم ، ثم سلام التواق إليك .

محمـد الحـافـظ التجانى

---

٦ ــ الطريق البين .

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمده سبحانه ، وأستعينه ، وأسأله أن يجزل أسنى صلواته ، وأسمى تحياته وبركاتـه ، وأزكـى سلامه على سيد المتمكنين فى مقام القرب الأعلى ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

إلى تلك النفس العالية ، والروح الطاهرة الصافية ، أبث شوقاً دام هموع(٧) ينابيعه علـى فـؤاد لن يزال خافقاً ولِهاً وحنيناً ، شجواً وشَجَناً ، وحباً وَوَجْداً إليك يا على أفنـدى ، يـا مـن تقـدر عِظم حبى لك ، وحرصى على سعادتك ، وبلوغك سنام ذروة العلياء فى الفضل والكمال فـى سائر أنواعه وكل ضروبه .

بعينى ما تلقى وما تتحمل ، وليتنى أستطيع أن أحمل عنك آلامك فى غربتـك ، أو مـشاركتك فيما ينزل بك ، فكم كان لذوى الكرب فى المكروبين سـلوى وعـزاء ، غـير أنـه يخفـف لـوافح اللواعج(٨) بقلبى الآسى ، ويخفض من لوعـات فـؤادى الكلـيم ثقتـى بثبـات نفـسك ، وصـدق عزيمتك ، وشغفك بالفضيلة ونصرتها ، وحرصك على نفع الإنـسانية ، ورجـائى الله لـك أن لا تقصر مكانتك عن مشاركة أولئك العظماء ، الذين يهب علـى أفئـدتنا شـذا أريـج حيـاتهم مـن رياض التاريخ الناضرة مصحوباً بما يلفح قلوبنا من أوار(٩) ما عانوا من مضض ، وما ألفـوا مـن بؤس ونكد ، فما وهنوا وما استكانوا ، ولا نالت سورة(١٠) الأيام من عزتهم ، ولا ثـورة البـؤس من مضى عزمهم ، وجلت أفئدتهم الكبيرة عن أن تجد لليأس شميماً ، فما عرفهم ولا عرفـوه ، صارعوا الخطوب فصرعوها ، وسكنوا للجلى حتى مضت تحدث الحقيقة أن ثم قلوباً لا يغـيض معين فضلها ، ولا ينضب ينبوع اضطلاعها .

وكما أن ثلوج هيملايا تداعبها الشمس الدهر كله صيفاً وشتاءً فلا تـزول ، فهـم أثبـت منهـا بأساً ، وأشد قوة فى الحق ، واستمـساكاً بمكـارم الأخـلاق ، وثبوتـاً فـى أسمـى مراتـب النبـل والبطولة ، فلو أقبلت عليهم النائبات بخيلها ورجلـها ، وشـنت علـيهم الحادثـات الغـارة بـسائر

٧ ــ دموع .
٨ ــ الحزن الشديد .
٩ ــ شدة .
١٠ ــ قسوة الأيام .

جحافل صروفها ، لن تلبث حتى تمر عليهم مرور الصبا فى السحر على شامخ الأطواد وثابت الأوتاد ، وما لوت لهم شكيمة ولا فلت من غرب ، فما عرفت فيك إلا الإباء والنجدة ، وبعد الغور وعلو الهمة ، وإن نفساً كنفسك لحقيق بها وخليق أن يقيها درع صبرها وحصن عزمها أن تأبه للخطوب مهما قست ، ولا بالنكبات مهما اشتدت ، وأسأل الحق تبارك وتعالى أن يكلأك بلطفه الخاص وجميع من تحب ، وأن يكون لك فى السراء والضراء كما كان لخاصة عباده وصفوة أحبابه .

واصغِ إلىَّ الآن أيها الصديق أحدثك عما سألت :

لا يعزب عن ثاقب فهمكم أن الحق تبارك وتعالى خلق الملأ الأعلى طهارة صرفة ، ونوراً روحانياً ليس للكثافة البشرية فيه نصيب ، كما خلق البهائم قد تغلبت طباع الحيوانية فيها على الروحانية ، وظهر حكم البهيمية والجثمانية ، وبرأ تبارك وتعالى الإنسان جامعاً للمظهرين ، وأودع فيه سر النشأتين ، فهو المستعد إذا ما أخذ بيد البشرية وفر بها من ديجور ظلمة الكثافة إلى فسيح روح التنزيه الروحانى أن تنتظمه هوامع مجالى القدس الأعلى ، فقد ينافس ملكاً أو يسمو عليه ، كما أنه المستعد للانحطاط من البهيمية إلى الدرك الأدنى ، وقد وهب عز شأنه الإنسان من المدارك والمنح والمواهب ما هو كاف للعروج به لأعلى عليين ، غير أنه إن أهمل تلك الكنوز ولم يراع حق الله فيها تدهور فى هوة الابتعاد عن الحقيقة ، وهيهات للسقطة فى جانب الأبدية من دواء .

ميز الله سبحانه وتعالى الإنسان بإنشائه نشأة الاختيار ، وأراد عز شأنه أن يكون للإنسان فضل بفضله تبارك وتعالى ، بالتماس الحق فى دياجير الأباطيل ، والنصب والتعب فى تحصيله ، حتى إذا ما فاز به كان أهلاً للثواب عن جدارة واستحقاق ، ويهلك عن بينة من لم يَسِر على النهج العلمى القويم فى تعرف الحقائق ، وعمى عن السبيل الواضح الذى يبرئ الأفئدة من سقام الريب والظنون والأوهام ، ويخلص فى بوادى البحث من مفاوز الشبه إلى أوج نعيم المعرفة ، فإن العلم الحق إنما هو الذى يريح العقل ، ويملأ الفؤاد يقيناً ، وأما سوى ذلك لو لم

يكن إلا خلوه من هذه المزايا التى هى أسمى المقاصد لكفى فى الدلالة على مرتبته ، وأين الراحة من العناء ؟ والنور من الظلمة ؟

وإن امرءاً تُرك يصارع الحوادث وتصرعه ، ويناضل الأباطيل وتناضله ، خاض غمار تلك الحروب الشعواء ، وسبح فى جارف تيارها ، وغالب موت ظلمة القلوب ، تارة تحمله الأمواج الثائرة بين ثبج[11] ذلك الخضم المرغى المزبد فترطمه بشاطئ النجاة ، فبيناه يرى نفسه قد حانت راحته وزالت غصته ، فإذا بها قد مدت أيديها إليه فأعادته إلى ذلك المحيط ، ثم لا يزال يعيد الكرة ، حتى ينجو إلى روض التمكين وغياض الصفاء ، لهو الجدير بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولو جاز أن يمارى الإنسان فى أنه مريد مختار ويجحد حريته ، ربما خطر على الذهن أن يتساءل لِمَ لَمْ يُقسَر على الهداية ؟ فإن معنى وجود لغة يفهمها الجميع ـ وليس يوجد فى العالم لسان يفهمه العالم كله ـ إنما هو أن يخلق الله لغة خاصة ، ويخرق استعداد الجميع لفهم تلك اللغة ، فكأن كلاً سيوحى إليه ، ولا يخفى ما فى هذا من سلب الإرادة ، وتعطيل وظيفة الحرية والاختيار التى فى المكلفين دون غيرهم ، وعدم كلة الإنسان لنفسه فى البحث عن الحقيقة والوصول إليها ، فما هو إلا نوع يشبه أن يكون قهراً ، وكأن السائل يريد أن يخرق الله ناموس الكائنات خرقاً عاماً يضطر النفوس أن تلجأ إلى الحق .

وجوابه : لو كنت مسلوب الاختيار لجاز أن تُقهر على اتباع الرشد ، أما ونشأتك النشأة الكاملة المطلقة التى لم يكمل فى الوجود كله من تجمل بما تجملت به من الكمالات الإلهية ، فلابد من ظهور مقتضياتها ، وإن من أظهر مظاهر العظمة الحقة الإرادة ، إذ المَلك ليس بقادر على المعصية ، وإذا تجرد الإنسان عنها مع قدرته عليها فانظر يا لك الله كم يكون مجده ، وهذا الذى أراده الحق للإنسان وخلقه له ، وجعل فيه الاستعداد للوصول إليه ، وإذا تقرر هذا فحيث إن مقتضى الاختيار إطلاق إرادة الإنسان فى تعرف الحقائق مع عدم نقض السنن الكونية

---

١١ ــ وسط الشئ تجمع و برز .

العامة ، ولا تبديل سنن الهداية ، ولا تغيير الناس عما هم عليه ، مع إقامة الحجج والبراهين القطعية التى تتحلل إلى ما لا يرتاب فيه حجاً من البديهيات ، ويرجع إلى الضروريات ، ويكسب اليقين .

وحيث إن الحق عز شأنه أودع فى كل مكلف من المواهب ما هو كاف ، إذا استعمل على وجهه فى معرفة الحق والوصول إليه مهما كثرت حوله الأباطيل ، واكتنفته الشبه بما بث من الدلائل الواضحة ، وأقام من أنوار الهدى مما لم ينأ عن الإنسان بل هو فيه ، وإنه عز وجل لم يرد قسرهم على الهداية ، وإلا لخلقهم كالملائكة ولم ينشئهم تلك النشأة ويمنحهم تلك الحرية ، ولكان كمال الإبداع ينقصه موجود مختار يشق لنفسه بين سبل الظلام المدلهمة منهجاً ينتحى به عن دياجيرها إلى النور المطلق والصفاء المحض .

ففيما فعل الحكيم الخبير سبحانه الكفاية التامة ، لمن استعمل عقله ولم يدثر مواهبه الفطرية ، مع بقاء حرية الإرادة وكمال الاختيار فى تعرف الحقائق ، ولا يكون الإنسان إنساناً إلا بهذا ، إذ هو مريد مختار بغير نزاع ، فلابد من أن يُمتحن ويُبلى ويُختبر (**ليهلك من هلك عن بينةٍ ويحيا من حى عن بينةٍ**)[١٢] ، فما أفاض الحق عليه تلك الصفة لتكون معطلة ، فلابد من استعمالها وظهور أثرها ، ولا يليق بالإنسان إلا هذه المرتبة ، ولا يجدر به غير تلك المكانة .

فمن أراد أن يذهل عن استعمال تلك الموهبة الإلهية ، التى امتاز بها نوعه عن البهائم والملائكة ، والتى لو استعملها كما ينبغى لكان مبرهناً على أنه أسمى الخلق قاطبة ، حتى عن كثير من الملأ الأعلى الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، إذ لا منغص لهم فى كمالهم ، فذلك الذى يريد إخراج نفسه عن النوع الإنسانى ، ويبرأ من لوازم مرتبته وليس بخارج ، فإن الحقيقة التى تقتضيها رتبته ، والكمال الذى لا كمال للمرتبة إلا به ، يطالبه بأن يسمو باختياره وبإرادته وبمواهبه ، مستمداً المعونة من أصل نوره ، والسيال الذى يصله بالحقيقة غير النهائية ، والنور المطلق الأزلى الأبدى ، وبهذا يكون قد وفى حقوق مكانة الإنسان ، الذى

١٢ ــ سورة الأنفال ، الآية ٤٢ .

هو مظهر سائر الكمالات الحقية المفاضة على هـذا الوجـود ، الجـامع لمـا تفـرق فـى غـيره مـن الكائنات الحسية والمعنوية فى الغيب والشهادة .

غير أنه من المعقول أن يوجه استفهام عن حكمة اختيار اللغة العربية دون غيرهـا مـن لغـات ذلك العصر ، فاصغِ إلىَّ يا رعاك الله :

لا يخفى عليكم يا عزيزى أن السبل إلى مقـصد مـن المقاصـد إنمـا يتـوخى فيهـا تبعـاً للأخـذ بالأسباب والسير على نهج الحكمة ، ما هو أدعى لبلوغ الغاية من ثبـوت دعـائم الحـق وتوطيـد أركانه وكمال نصرته والدفاع عنـه ، وحيـث إن القـصد هـو وجـود كتـاب إلهـى جـامع لـسائر الكمالات المنشودة ، صالح لكل زمان ولكل مكان ، فينبغى أن يكون فى الأمة التى هى أقـرب الأمم فطرة إلى ملائمة أصول ذلك الكمال العلمية والعملية .

والكمال العملى لا يتأتى إلا بإدراك الحقائق على ما هى عليـه بأقـصى مـا يمكـن للمواهـب الفطرية ، وبهذا الإدراك وحده تزول نقيصة الجهل ، الذى اتفق العقلاء قاطبـة علـى أنـه رذيلـة يحسن وينبغى التخلص منها .

والكمال العلمى هو أن لا تكتفى بعلمك بمحاسن الأخلاق ومساوئها ، بل تكـون مـع ذلـك متصفاً بالمكارم نائياً عن التخلق بالنقائص ، وقد تطـورت معتقـدات البـشر فـى تاريخهـا تطـوراً غريباً ، ففى كل عصر لها صورة تخـالف الـصورة التـى فـى العـصور الأخـرى ، وإن كـان ثمـة عقول ـ وإن عاشت فى عصرنا مثلاً غير أنها تعيش كما لـو كانـت فـى عـصر أفلاطـون أو فـى عصر سقراط أو بوذا أو كونفوشيوس أو غيرهم ممن مضى أو لما يـأت بعـد ـــ لم تتـأثر بالـصورة المهيمنة على الفكر الإنسانى فى جيلنا الحاضر ، وكـذلك الأمـر فـى كـل جيـل ، تجـد العـصر الواحد حوى عصوراً مختلفة ، غير أنه لابد له من صبغة خاصـة بـه ، ولمـا كـان العقـل البـشرى ـ ولا نعنى به عقلاً خاصاً بل العقل المطلق من حيث هو ـ لا يمكن أن يُزوَر من الدليل القطعـى بل هو طلبته وراحته .

وكيف يمكن أن يَرُدّ البديهى أو ما تركب منه إلا إذا جُن فلم يعد صالحاً للبحث ولا التعقل ،

فإذا أكسرنا قيوده وتركناه حراً يبحث فى ظلمات الشُبه عن الحقيقة الجلية غير مقيد إلا بالدليل الذى لا يرتاب فيه ، ولا يمكن أن يرتاب فيه ، ولم يتقيد بتقليد لأى رأى مجرد عن الدليل والبرهان ، يطل من فضاء الإطلاق على تلك المذاهب المتباينة والملل المختلفة ، لا ينحاز لطور من أطوار الفكر الإنسانى ، ما لم تقم الحجج القطعية على أن ذلك هو الطور الكامل ، فلا يمكن أن يخطئ هذا كبد الحقيقة من حيث ما هى به فى الواقع ، ولابد أن يصيب الحق الصريح ، فإن الحق لا يخذل فى أى موطن من مواطن البحث والتحقيق ، فحاكِمْه إن شئت للعلم ، حاكمه للعقل ، حاكمه للفطرة ، للوجدان ، حاكمه بما تشاء بشرط أن تنصف نفسك بعدم إنكار الحقائق ، فلا تجده فى كل موقف إلا منصوراً ، وإن شاركه باطل فى موطن فلابد من ميدان يخلو من سواه ، وينبلج لذى عينين أن ما عداه زاهق داحض ، ألا وهو ميدان الدلائل القطعية التى لا تحتمل إلا وجهاً واحداً ، هو الحق .

ومن شاء أن يعرف خلاصة الزمن وحماة الحقائق فى مختلف العصور وأهل الصلاح والإصلاح ، فهم أولئك الذين سلكوا هذا السبيل وانتهجوا ذلك المهيع ، فكل دليل حكمه الناس ، سوى دليلهم اختلف أهله واختلفت نتائجه ، وهم لم يختلفوا فى عقيدة ، ولن يختلفوا ، فإن الحق واحد فى كل زمان وفى كل مكان ، ولن ينقلب يوماً ما فيكون باطلاً ، فهم دون غيرهم الراتعون فى بحبوحة نعيم المعرفة ، عاشوا على الحق ، وماتوا على الحق ، ويُبعثون على الحق ، ثلج اليقين مرتعهم ، وبرد التمكين مأواهم ، وهذه رحمة الله الدائمة (**ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك**)[١٣] ، (**وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون**)[١٤] ، هؤلاء هم أهل الحق فى كل عصر ، هؤلاء هم سادة الخلق وصفوتهم ، قدس النفوس ، وأرواح الأرواح .

وكل ما يحكم به العقل من إثبات أمر لأمر ، أو نفيه عنه ، لا يخرج عن أن يكون هذا الأمر موجوداً أو معدوماً ، والوجود هل كان وجوده بعد عدم ؟ أو كان غير مسبوق بعدم ؟ والمعدوم

---

١٣ ــ سورة هود ، الآية ١١٨ ــ ١١٩ .

١٤ ــ سورة آل عمران ، الآية ١٠٧ .

هل يمكن أن يتأتى اتصافه بالوجود ؟ أو لا يتأتى ؟ فإن كان لا يتأتى له الاتصاف بالوجود هل ذلك لمانع ؟ أو هو أمر ذاتى له ؟ ولا يمكن أن يخرج أى أمر يجول بالعقل عن هذه الأقسام ، فمن لم يميز كل أمر ويلحقه برتبته فذلك الذى قد قصر عن مرتبة الإنسانية ، وخرج عن أن يعد فى مصاف العقلاء والباحثين عن جمال الحقيقة على ما هى به فى ذاتها ، ولن يتأتى له الوصول إلى مرتبة اليقين الكامل على النهج العلمى الذى يستطيع صاحبه أن يقف أمام العالم بحذافيره فيما لو خالفوه ، وينتصر على الكل ، ويقيم الحجة على بطلان كل ما خالف معتقده ، ويشيد الحق على دعائم الباطل .

فالوجود الذى لا بداية له هو ذات الواجب سبحانه ، والذى سُبق بعدم هو كل ما سواه من الموجودات ، والمعدوم الذى يتأتى وجوده هو ما كان من جنس هذا العالم ، وما لا يتأتى وجوده لذاته كوجود حى ميت أو معدوم موجود أو أن يساوى الجزء الكل أو الوجود العدم فهذا هو المستحيل ، وما لا يتأتى وجوده لمانع آخر هو ما تعلقت إرادة الحق بعدمه ، فالمدرك لهذه الأقسام على ما هى عليه بحيث لا يكون الأمر فى الواقع إلا كما حكم به الملحق لكل أمر يجول بخاطره بمنزلته لا يغيره عن مرتبته بحال ، قد أصاب الحكم على سائر الموجودات ، فكمل الكمال العلمى .

ولما كانت أصول المعرفة أعظمها معرفة الله عز وجل الذى هو حقيقة الحقائق ، فمن عرف المصدر الحق الذى لا نهاية له لم يضره جهله بما صدر عنه مما هو محدود ، ومن جهله به سبحانه فجهله للانهاية لا يقاس به علمه بمحصور ، ولما كانت كل جريمة يراد تقديرها إنما تقدر بمن وجهت إليه ، فليس من انتقص ناقصاً يكون كمن انتقص كاملاً ، أو من كان أكمل من هذا الكامل ، ومثل هذا مثل ما اصطلح الناس عليه من أن من أجرم حيال حارس لا يكون كمن أجرم حيال أمير ، أو وزير ، أو ملك ، وأين من سب ولياً أو صحابياً ممن يسب مَلَكاً ، أو نبياً !

وتوجيه النقص لله تبارك وتعالى جريمة فى جانب الموجود الذى لا نهاية له ، كما أن من أحسن إلى إنسان بشربة ماء فسبه كان ذلك نقصاً فى الحقيقة فاحشاً ولؤماً عظيماً ، فكيف بمن

أغنى من فاقة ، أو أبرأ من علة ، أو أنعم بمُلك عظيم ! فكيف بمن أنعم بالحياة والإرادة والنعم التى لا تحصى ! قال تعالى : (**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**)(١٥) ، فهذه جريمة حيال أمر لا نهاية له ، ولو كان سباً فى لحظة ثم انقضى لكان أهون ممن يعتقد عقيدة ثابتة تدوم مع صاحبها بدوام التكليف ، فهى سب دائم فى كل لحظة من لحظات الحياة ، وهذا لؤم تتلاشى فيه كل صفات النبل ، فمن زل فاعتقد النقص فى ذات الحق تبارك وتعالى فهو مجرم منتقص لمن أنعم عليه بما لا ينتهى من المنح ، مع أنه لا نهاية له فى الكمال ، فمن العدل أن يكون عقابه لا نهاية له بقدر جرمه ، فأساس كل كمال ومصدر كل فضل هو معرفة سر وجودك ، وتقدير ما ينبغى لذاته من الكمال الحق ، والاعتراف له بكل فضل وثناء .

ولو نظرنا قبل عصر النبوة إلى حالة الأمم ذات الشوكة ، التى تستطيع أن تبث الحق وتنشره بين الأمم وتنصره ، ترى أن منها من كان يعتقد أن الله هو ذات مخصوصة مما هو فى الحقيقة ممكن مخلوق كالمسيحيين والبوذيين والفرس ومن ماثلهم ، ومنهم من كان يعتقد أن الله هو الخالق الرازق وحده لا سواه ويتخذ من دونه آلهة هم شفعاء عند ذلك الإله الواحد كالعرب (**قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون**)(١٦) ، (**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون**)(١٧) ، ولا نزاع فى أن هؤلاء أقرب إلى العقيدة الحقة ممن جعل الواجب ذاتاً مخصوصة هى مخلوقة فى الواقع .

وحيث إن فطر البشر لا يمكن أن يحيط بها أحد إحاطة كلية تجمع ظواهرها وبواطنها إلا الحق سبحانه ، ولا يعلم غيره سبحانه ما يصلحها فى جثمانها وقلبها ونفسها وروحها وسرها فى

١٥ ــ سورة النحل ، الآية ١٨ .
١٦ ــ سورة يونس ، الآية ٣١ .
١٧ ــ سورة المؤمنون ، الآية ٨٤ ــ ٨٩ .

ذاتها ، وما هو خارج عنها ، وما يلائمها من المخلوقات الأخرى ، وما لا يلائمها ، وهو أرحم بها من نفسها ، فليس لتلك الفطر أن تتقيد بقيدٍ ما إلا بما يتفق مع ما يَسُنُّه ذلك الخالق العليم بها ، وبمتعلقاتها ، وبمصالحها الحقة فى معاشها وفى معادها ، فى كل طور من تطوراتها .

و كل ما يصنعه البشر مما يخالف ذلك ليس لأحد أن يتقيد به ، لأن واضعه لا يعلم الصالح من كل وجه ، وربما أصلح وجهاً جثمانياً فأضر بآخر روحانى ، أو بالعكس ، وربما راعى جماعة خاصة فى التشريع تضر تلك المراعاة جماعة أخرى أو جماعات ، إلى غير ذلك من الأضرار الكثيرة المتباينة التى لا يعلمها حق العلم إلا منشئ الكائنات (**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**)[18] ، (**وسع ربنا كل شئٍ علماً**)[19] .

فحق التشريع إنما يختص بالذات العلية وحدها ، وما الأنبياء إلا مبلغوا أوامر الحق ونواهيه لعباده ، وليس لهم حق فى سن أى نظام للأفراد ولا للجماعات ، إلا ما يأذن الحق فيه تبارك وتعالى وحده ، ولذا قال عز شأنه : (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**)[20] ، (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**)[21] ، (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**)[22] ، فمن جعل لنفسه حق التشريع فيحل ما حرم الله ، ويحرم ما أحل الله فذلك منازع للربوبية فيما اختصت به ، مغتصب للحق الإلهى ، سَوّى بينه وبين الرب تبارك وتعالى فى أمر من الأمور الربانية ، فهو فى جنف عن العقيدة الحقة وزيغ وضلال ، على ما فى ذلك من تكذيب واستهانة بالنبيين والأوامر الإلهية ، وهو عين تكذيبه عز وجل ، فإنه قد أخبر بصدقهم ، فمن كذبهم فقد كذبه سبحانه وتعالى ، وكذلك من أقر هذا الأمر وخلع ربقة التكليف لرأى ذلك المفتات على الحقائق ، فهو مثله فى الخروج على الله تبارك وتعالى ، وفى هؤلاء نزل قوله

١٨ ــ سورة الملك ، الآية ١٤ .
١٩ ــ سورة الأعراف ، الآية ٨٩ .
٢٠ ــ سورة المائدة ، الآية ٤٤ .
٢١ ــ سورة المائدة ، الآية ٤٥ .
٢٢ ــ سورة المائدة ، الآية ٤٧ .

تعالى : (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**)[٢٣] .

أخرج ابن سعد ، وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : ((**أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ فى سورة براءة : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ، فقال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه**)) .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه عن أبى البحترى رضى الله عنه قال : " سأل رجل حذيفة رضى الله عنه فقال : أرأيت قوله تعالى : (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**) ، أكانوا يعبدونهم ؟ فقال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه " .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن حذيفة رضى الله عنه : " (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم**) ، قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم أطاعوهم فى معصية الله " .

فمن كان يعتقد تلك العقيدة من اليهود والنصارى فهو كافر بالله تبارك وتعالى ، جاهل بكماله الواجب الذى لا يعذر المكلف بجهله ، مطعون فى الأصول كغيره .

ومن عرف تاريخ الكتب التى يعتمدها هؤلاء القوم لا يمكنه أن يجد مستنداً يوثق به من الوجهة العلمية البحتة ـ لا من وجهة التقليد ـ يُمكنه من أن يصحح نسبة تلك الكتب إلى من نسبت إليه ، ومنها مواضع لم تنسب لأحد ، فلا يعرف من كتبها ولو وهماً ، ولا فى أى عصر كتبت ، ومنها ما نسب إلى اثنين أو أكثر مع كثرة المجاهيل ، والانقطاع بين من يروى تلك الكتب ، فما كان يوجد إذ ذاك شريعة صحيحة يتأتى الحكم بأن التحريف لم يدخلها ــ لباحث حر نزيه ـ حتى يمكن أن تقوم الحجة بها على من يقال بأنهم مكلفون بها ، ولا تخفى سهولة إدخال أشياء على كتب لم يرزقها الله تعالى بمن يقومون عليها ، فيوصلونها إلى غيرهم فغيرهم

٢٣ ــ سورة التوبة ، الآية ٣١ .

كما سمعوها ، مع كون الجميع معروفين عدولاً ضابطين ، وبحيث يُـؤْمَن عـادة تواطـؤهم علـى الكذب ، بل لم ترزق ولا بسند آحاد متصل ولو كان ضعيفاً .

ولم يكن أهل هذا العصر يعنون بهذا النوع من حفظ المنقول كما هو ، ومن ذا الذى يدرى مـا فعلت الأيدى على طول تلك الأزمان فيها ؟ وقد استوى اليهود والنصارى فى هذا الحال ، غير أن اليهود زادوا رد نبوة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام وتكذيبه وما جاء به من الحـق ، وإن أمة جاءها أمر الله فردته لهى فى البعد أعرق من هذه الوجهة ممن لم يأتهم ذلك الأمر ولم يخاطبوا به .

ومن الوجهة الاجتماعية فقد عمتهم الفرقة فتلاشت وحدتهم فى مختلف الأمم ، فلـيس لهـم جامعة ولا صولة تمكنهم من مناهضة الأمم القوية الكثيرة على ما اشتهر فـيهم إذ ذاك مـن شـح مـوروث ، وخـوف علـى الـنفس كانـت نتيجتـه الاضـطهادات المتواليـة ، ولا خـلاف فـى أن الاستعباد يغرس فى نفوس المستعبدين الكثير من الأمراض العامة .

ولا نزاع فى أن ديناً سيناضل سائر الأديان والأمم ينبغـى أن يكـون فـى أمـة انبثـت أصـول مكارم الأخلاق فى كل فرد من أفرادها ، أمة ذات شوكة يمكنها أن تأخذ بيد الحق وتنـصره فـى وسط أعدائه ، الذين لا يخلون من أن يكون فـيهم مـن يعـرف أنـه الحـق ، وإنمـا يناضـله لبقـاء الرياسة بيده ، أو تعظيماً لآبائه ورؤسائه ، أو من يقلدهم بغير نظر ولا دليل ، ولقد كـان المـسلم من أولئك القوم أرقى مَثَل حتى فى جهاده ، فلم يكـن إلا مـدافعاً يـدرأ الـشر بمـا هـو الأدنـى فالأدنى ، ويعلم ذلك المُطلع على نظم أصول الدفاع المنـصف المتحـرى لقـضايا التـاريخ ، قـال تعالى : (**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**)[٢٤] ، ولقد نصر الحق فانتصر ، هذا فيما يختص بوجهة الاعتقاد .

أما من وجهة الكمال العلمى فمعلوم أن أصول مكارم الأخـلاق الكـرم والعفـة والـشجاعة والعدل ، ويمكننا أن نرجع إلى علم الأخلاق حيث نجد أن جُل العلماء فيه قـد أجمعـوا علـى أنـه

---

٢٤ ــ سورة البقرة ، الآية ١٩٠ .

يتفرع عنها سائر الأخلاق الفاضلة ، وأن أضدادها ينابيع مساوئها ، والعرب كانوا أكرم الناس ، فأما عن العفة فمع أنهم لم يكونوا ذوى دين صحيح إلا أن عزة نفوسهم وإباء فطرتهم كانت تترفع غالباً عن أن تدنس حياتها بذلة أو مهانة ، أو بأن يكون لأحد عليها منة ، أو تخالف ما يطمئن إليه قلب الرجل الشريف غريزة وسجية ، وتلك حكايات غرامهم الثابتة الصحيحة لا الخيالية التى يخترعها خيال نوابغ التأليف ، وأما عن الشجاعة فأنت تعلم بأن تاريخهم أرانا ميزتهم على الأمم إذ ذاك ، بأن كلاً منهم كان ينشأ على ظهر جواده ، ولا يعيش إلا تحت ظل رمحه ، وفى كنف حسامه ، وحسبك بذلك جواً يضطر كل فرد منهم أن يكون فى مقدمة الجنود البواسل ، ولا تسأل عن عزة النفس وحماية الجار وغير ذلك من فروع الشجاعة ، وأما العدل فلا يخفى على نباهتكم أن الاستبداد هو القاتل لروح العدالة فى الأمم ، وأن مظهره حكم الفرد ، أو ما هو فى معناه ، وقد كان مفقوداً عند العرب فما كان يتحاكم خصمان إلا إلى قاض يرتضونه ، بحيث إن زاغ عن الحكم ارتضوا غيره ، فكان القضاة بالضرورة يخشون أن يشتهر عنهم أن أحكامهم لا يرتضيها من يتحاكم إليهم ، فيذهبون إلى غيره بعد التقاضى إليه ، كل ذلك كان أدعى لبقاء الأمة العربية بعيدة عن سريان روح الاستعباد فيها .

هذا عدا مزايا اللغة العربية ، فلم يكن يوجد فى ذلك العصر أمة عمت البلاغة أفرادها فرداً فرداً حتى كان الكل مندفعين بكلياتهم لبلوغ الذروة فى الفصاحة إلا العرب ، ويمكنك أن تقول : إنه يندر أن تجد منهم من لم يسلس له عنان اللغة ، فكان بديهياً أن أصول الاجتماع تنتج أن يكون ذلك الدين فى العرب دون غيرهم ، وأن ينزل القرآن بلغتهم ، ولو أنصف واقف على سنن الاجتماع وعلم أن موجبات نزول الدين فى الأمة العربية كانت لقربها للحق فى التوحيد على سائر الأمم القوية ، وفى كمال الأخلاق عن العالم كله مع كمال الفصاحة فى اللغة ، ثم تتبع التاريخ لوجد أن مكة كانت موطن حجهم ، فكان أهلها ينتقون من لغة كل فريق أفصحها ، ومن كل لهجة أسلسها وأعذبها ، مع شهادة العرب أن مشاهير ذوى الرأى كانوا منهم ، وهم المرجع الأعلى فى خصوماتهم ، ولذا ميزوهم بمميزات خاصة ليست إلا

لهم ، لرأى هذا المنصف أنه مضطر لأن يحكم بوجود ذلك الدين فيهم ، ولو نظر إلى أهل مكة وعرفهم معرفة تامة لعلم أن بنى هاشم هم خلاصة قريش الذين يسكنون مكة فى سائر هذه المزايا ، ولرأى أن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بشهادة الأحياء والأموات ، الأحباء والأعداء ، هو العقل الكامل ، والعلم البرهانى ، والحجة الساطعة .

ولو تجسدت أسمى مرتبة من مكارم الأخلاق حتى كانت إنساناً لما كانت إلا هو صلى الله عليه وسلم ، وفى الفصاحة هذا كلامه ، فهو إمام الموحدين والمتقين والمجاهدين ، وعلماء الأخلاق والنفس والتربية والاقتصاد والاجتماع ، وبالجملة إمام الأئمة فى كل فضل وكمال ، ومع أن فطرة العرب كانت تلائم أصول هذا الكمال ، وذلك مما يجعل الحق إذا اعتقدوه أثبت فى جذر نفوسهم مما لو اعتقده غيرهم ممن كان أبعد عنه فى العقيدة أو الأخلاق ، فإن التوصل إلى أن يعتقدوا ذلك ويخلعوا عوائدهم لم يكن بالأمر الهين ، فإنهم كانوا قوماً ذوى عصبية شديدة لما كان عليه آباؤهم ، يأنفون معها أن تسفه أحلامهم بحق أو بغير حق ، وقد اتفق المؤرخون على أنهم كانوا أشد الأمم شراسة وبعداً عن الإذعان لغير ما يرون ، حتى كان كل فرد منهم مستقلاً لا يخضع إلا لرأيه الشخصى ، ولذا لم يكن لهم حكومة تهيمن عليهم ، ففشت فيهم الأمية حتى عمتهم ، ولم يكونوا يخلون من مساوئ تعودوها وجمدوا عليها ، وليس تغيير أمة فى عقيدتها وعوائدها بأمر يسير ، فإن ذلك بإجماع علماء الاجتماع يحتاج لأمد طويل ، فكيف بأمة هى من الخشونة والتطرف فى العصبية بالمكان الأقصى ! وهذا من أول الدلائل على قوة نفسية ذلك النبى الذى تغلب على تلك الأمة ، فأصبحت بعد ذلك أشد الأمم إذعاناً للحق ، وخلعت تلك العوائد والعقائد فى زمن يسير لم تكن القوانين العامة فيه كافية لقلبها ، وترك ذلك التعصب الذى تأصل فى نفسيتها حتى غطى على جميع أخلاقها ، وهذه معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم المعجزات ، فإنها خرق لسير التطور الاجتماعى فى أخلاق الأمم .

ولما كانت الكتب السماوية يقصد منها انتشار تعاليمها بين من يراد انتشارها فيهم ، وزاد القرآن على ذلك إقامة الحجة ، مع احتوائه على ما يصلح للدوام من تعاليم سائر الكتب السماوية والزيادة عليها ، إذ لا يمكن أن يصلح للخلود إلا كتاب لا يحجر على الرقى الإنسانى فى أى ضرب من ضروب الكمالات الحقة ، بل يساعف التشوف الذى فى فطرته الإنسانية إلى الترقى الدائم إلى حيث لا نهاية من الكمال ، فلن تجد كتاباً أوفى من القرآن فى ذلك ، والتاريخ أصدق شاهد ، فلم ولن يضيق يوماً بالترقى العلمى ولا الاقتصادى ولا الاجتماعى ، بل هو الذى فك قيود الإنسانية التى عذبت طويلاً بالأغلال الدينية ، وأبان أن الدين الحق هو العلم الحق ، ولم يقم القرآن الحجة فى الفصاحة فحسب ، بل أقامها أيضاً فى سمو تعاليمه وملائمته لمطلق الكمال الصالح لكل نفس ، ولكل جماعة ، ولكل طور من أطوار العقول البشرية ، والذى لا يقف بالروح ولا بالجسم عند أى حد من الفضيلة .

فأما فى فصاحته ، فلو أن صائغاً أجاد صنع حُلى ثم تحدى جميع الصاغة فعجزوا عن أن يصنعوا كصنعته ، فمن الأمور المعقولة أن النجارين والحدادين والزراع والقواد والوزراء والملوك ممن ليست الصناعة صناعتهم يكونون أعجز ، فالحجة قائمة على أهل الصناعة مباشرة وعلى غيرهم من باب أولى ، فمع أن العرب ـ لم ينقل لنا تاريخ أمة من الأمم اعتناء سائر أفرادها وبلوغهم سنام البلاغة عامةً وخاصةً ـ عجزوا ، فكيف بغيرهم ! ومع هذا فباب اللغة مفتوح ، فليتعلم الناس ما شاءوا ثم ليأتوا بسورة من مثله إن استطاعوا ، ولن يستطيعوا ، فهذا كاف جد الكفاية فى إظهار إعجازه ، وإقامة الحجة على العالمين ، ومما هو أبلغ فى الإعجاز أنه مما تنطق به الألسنة وتتفهمه العقول ، وهو مع قربه أعز وأمنع من أن يقال .

وتعاليم القرآن يمكن ترجمتها بكل لسان كسائر التعاليم السماوية وغيرها التى انتشرت بواسطة الترجمة ، وهذه الهند والترك وغيرهم يدينون بأوامر الكتاب ونواهيه ، وكل إنسان مطالب بالإيمان بالتعاليم الحقة التى تلائم الفطر والبراهين العقلية القطعية ، ولا تقيد الرقى البشرى ، لا فى العقل ولا فى العلم ولا فى الأخلاق ولا فى الأدب ولا فى الاجتماع ولا فى

الاقتصاد ، بل تسير به فى فسيح نعيم لا يُحد مع الإخاء والمساواة والعدل ، إشتراكية معتدلة لا تنتج شل روح النشاط فى الأفراد ، ولا تحرم الضعفاء والمساكين وذوى الحاجة ، ولا تبخس المشتغل حقه فإنه أولى بأن يمتاز بمزية نصيبه فى عمله أكثر من غيره ، خصوصاً أن ذلك لا يقتل فى الجماعة فضيلة التنافس المحمود ، فالحجة قائمة على من تصل إليه تلك التعاليم ولا يتمسك بها ، ويترك الحد الأوسط فيظلم ويظلم ، وأما من لم تصل إليه على وجهها فهو غير مكلف بها ، ولا حساب عليه ولا عقاب .

أما سؤالك ، لِمَ لمْ يلبث النبى صلى الله عليه وسلم زمناً يمكنه من السير فى الأقطار لنشر دعوته بنفسه ؟

فجوابه سهل : وهو أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ القرآن ، وهو كاف فى إقامة الحجة ، وأصحابه رضوان الله عليهم قد فتحوا البلاد ونشروا تعاليمه ، ولن يزال من أمته حراس عليه أمناء وبررة أتقياء حتى يأتى أمر الله ، وقد أراد عز شأنه اختصاص الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الحق الذى أتى به انتشر فى أمد قليل ، ما لم ينتشر غيره من الأديان فى أزمان طويلة مع سلامته من التحريف الذى لم يسلم أى دين منه .

وحيث إن الإسلام دين عقل ، وعلم ، وأخلاق ، وإرتقاء دائم ، ووجدان ولن ينبو عنه عالم من عوالم الإنسان متى سلم من التقليد وحَكَّم الدليل لا الوهم ، فهو يفتح بنفسه لنفسه بين العقلاء الطريق حتى يصل إلى المكانة التى تليق به بينهم ، وما كان برهانه من نفسه لا يحتاج إلى برهان .

أما أهل أوروبا أو غيرها ، فقد عرفت أن من لم تصله الدعوة على وجهها فهو ملحق بأهل الفترة ، وقد قال تعالى : (**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**)[٢٥] .

---

٢٥ ــ سورة الإسراء ، الآية ١٥ .

وختاماً أذكرك الله ، وأوصيك به سبحانه ، فإن المحروم من حُرم منه عز وجل ، فكن فى معيته دائماً ، وكما أنك لا تغفل عن شهود وجود نفسك ، فلا تذهل عن رؤية موجدك لك ، بل كن مشاهداً له فى كل لحظة بعين الروح الخالدة .

وتقبل يا عزيزى أسمى ولاء وإخلاص وتحية .

من المخلص لك

محمد الحافظ التجانى

مما منحنا به سيدنا ومولانا مؤلف هذا الكتاب رضى الله عنه وأرضاه وعنا به رسالة أرسلها لنا ، بها من النور الرحمانى ما لا يحصى ، ومن الأسرار ما لا يستقصى ، أحببنا أن نلحقها هذا الكتاب رجاء أن تعم بركتها إن شاء الله تعالى ، فها هى رسالة هدية السالكين وهداية السائرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلق الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ،،،

فإن النفوس العالية إذا رأت الحسن والقبيح فعلت الحسن وتركت غيره ، وإذا رأت الحسن والأحسن تركت الحسن وفعلت الذى هو أحسن ، قال تعالى : (**ادفع بالتى هى أحسن**)[٢٦] ، وإن أهل الخصوصية إنما هم الذين شاركوا غيرهم فيما هم فيه من فضل ، وزادوا عليهم بما لم يبلغ لهم فيه شأو ، والسير والسلوك إلى الله عز وجل لا يعرف عند السائرين إليه عز شأنه إلا بأن تتصف فى كل يوم بل فى كل ساعة بكمال لم تكن متصفاً به من قبل ، أو تزول مسيئة من مساوئك ، ومن لم يكن كذلك فهو إما واقف ، وإما ناكص على عقبيه والعياذ بالله تعالى ، وهذا هو الطريق ، فسيروا على بركة الله ، والسلام .

محمد الحافظ التجانى

٢٦ ــ سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

تتمة

لقد تم طبع هذا الكتاب والحمد لله ، وإنا نرجو الله تبارك وتعالى أن يعم نفعه المسلمين جميعاً خاصتهم وعامتهم ببركة الشيخ رضى الله تعالى عنه ، هذا وإن لسيدنا المؤلف رضى الله عنه تآليف منها ما طبع ونشر بين الناس ككتاب **الحق فى الحق والخلق** ، وكتابنا هذا ، ومنها تحت الطبع وهو **الحد الأوسط بين من فرط ومن أفرط** وفيه فوائد جمة ، وإن شاء الله عند تمام طبعه سينشر بين الناس ، ونسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين إلى الأخذ بيد الدين ونصرته والتمسك والتأدب بآدابه الربانية ، إنه ولى ذلك ، وإليه المرجع والمآب ، والعاقبة للمتقين ، قال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾**[٢٧] ، كما قال تعالى أيضاً : **﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾**[٢٨] صدق الله العظيم .

هذا وأسأل الله تعالى لى ولكم العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، والسلام على من اتبع الهدى .

حافظ توفيق التجانى

وقد عرض هذا الكتاب على كثيرين فأقروا إبقاءه على هذه الكيفية ، خصوصاً النور الكامل الجامع العارف صاحب الفضيلة الشيخ العزامى .

---

٢٧ ــ سورة الحديد ، الآية ٢٨ .
٢٨ ــ سورة الحشر ، الآية ١٨ ــ ٢٠ .